

## دراسة المعازلة اللفظية في شعر أبي الطيب المتنبي من منظر ابن الأثير

(رؤية نقدية)

الدكتور أحمد باشازانوس<sup>1</sup>

على خالقي

الملخص

البيان من أجل نعم الله على الإنسان، و هو من أهم خصائصه الإنسانية التي تميزه عن غيره من الكائنات الحية. و البيان و إن كان وسيلة للتخاطب و التعبير بين الناس كما هو معلوم، فهو صورة عن العقل الإنساني، و ثمرة من ثمراته، و أثر من آثاره. إن الله تبارك و تعالى مدح القرآن بالبيان و الإفصاح، و بحسن التفصيل و الإيضاح، و بجودة الإفهام و حكمة الإبلاغ و قال تعالى: ﴿ هذا بيان للناس ﴾ (آل عمران/١٣٨). ابن الأثير «و هو من أهم ناقدى البلاغى» يؤكد أنّ في هذا التعاقل خروجاً عن سنة العرب الذين هم الأصل في هذه اللغة و فصاحتها، دون أن يحفل بأنّ الخروج عن السنن شذوذ، و أنّ الشذوذ - لغوياً - هو النادر الطريف، و من هنا وجد المجتمع الشعبي في هذا الشذوذ اللغوي مادة ثرة طريفة تضحكه بعد أن سقطت محاذيرها الاعتقادية أشدّ الإضحاك، و تثير طاقاته الصوتية و قدراته اللسانية، فكان فنّ المعازلات اللسانية واحداً من فنون القول عنده، بوظائفه الإمتاعية و التعليمية. إنّنا نسعى في هذه المقالة أن نأتي نظرة جامعة حول ظاهرة المعازلة اللفظية و تجلياتها في الشعر المتنبي، و دراسة حول آراء أفضل النقاد البلاغة في العرب، و المنهج الذي إعتمدناه في هذه المقالة منهج الوصفي التحليلي.

الكلمات الرئيسية: النقد البلاغى، المعازلة اللفظية، أبو الطيب المتنبي، الشعر، ابن الأثير

### ١- توطئة

الفصاحة عند العلماء من مقومات البلاغة، فكلّ بليغ فصيح و ليس العكس، و ذكر العلماء أنّ الفصاحة يوصف بها المفرد و الكلام و المتكلم، و البلاغة يوصف بها الأخيران فقط (القزويني، ٢٠٠٣م: ٢٤). و أمّا

البلاغة في الكلام، فهي مطابقتها لمقتضى الحال مع فصاحته (نفس المصدر: ٣٣). البيان ضرورة للأنبياء و المرسلين عليهم السلام، لأنهم يواجهون أقوامهم بالحجة القاطعة و القول الفصل، فلا بد لهم من حسن البيان، بل هم عليهم السلام أئمة البيان في هذا العالم. قال تعالى: ﴿و ما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم﴾ (سوره ابراهيم/٤). فعملية البيان في البداية و النهاية ضرورة للإنسان حتى يعيش على وجه الأرض، و يتواصل مع بني جنسه، و ضرورة للأنبياء و المرسلين حتى يقيموا منهج الله في الأرض، و ضرورة لأعداء هذا المنهج أيضاً الذين نصبوا أنفسهم لمواجهة الأنبياء و المرسلين بالكلام المنمق أو زخرف القول كما ذكر القرآن الكريم. و في هذا الصدد يقول الجاحظ: «و ذكر الله تبارك و تعالى جميل بلائه في تعليم البيان، و عظيم نعمته في تقويم اللسان»، فقال: ﴿الرحمن، علم القرآن، خلق الإنسان، علمه البيان﴾ (الرحمن/١-٤)، و سَمَاهُ فرقاناً كما سماه قرآنًا، و قال: ﴿عربي مبین﴾ (سورة النحل/١٠٣).

أعجز المتنبي كثيراً من البلغاء، و تفوق على جميع شعراء عصره، و فرض على الأيام خلود شعره، ولكن بالرغم من هذا الإعجاز الذي اشتهر به جاءت بعض أبياته شاذة مبهمه؛ ثمّة ضرب من ضروب التعبير أو التركيب اللغوي أو التأليف أو النظم «نظم الألفاظ في الكلام» يتألف على نحو مخصوص تقوم اللفظة فيه عن عمد على تنافر الجرس في الحروف و تفتقد اللفظة المركبة فيه عن عمد أيضاً تناغمها و اتساقها و انسجامها مع ما يجاورها في البناء اللفظي طبقاً لعلاقة التجاور في السياق و يختبر البعض بتكرارها شفاهياً ثلاث مرات فأكثر، دون توقف أو غلط أو تلوّك أو للدلالة على فصاحة اللسان فالتنافر الصوتي و التعاضل اللفظي هنا أمران مقصودان في هذا الضرب من التأليف الأدبي الشائع في المجتمعات الشعبية التي ترى في القدرة على ترديده - بنجاح - مقياساً من مقاييس فصاحة اللسان فهو من هذه الناحية فن من فنون القول الشفاهية التي لا تزال حية في البيئات العربية حتى اليوم، و مع ذلك، فهو لم يحظ بأدنى قدر من الفولكلوريين العرب، جمعاً أو تصنيفاً أو دراسة، بل ليس ثمّة مصطلح علمي معروف بينهم، يشير إليه أو

يدل عليه، يقابل المصطلح الإنجليزي الشائع<sup>١</sup>، و من ثمّ فإنّ ابن الأثير يقترح هنا مصطلحاً يستعيده من تراث النقدي و البلاغي، هو المعازلة، و تجمع على معازلات، على أن نقرنها بسمه وصفية هي «اللسانية» و بذلك يصبح المصطلح المقترح هو المعازلات اللسانية تمييزاً لها عن المعازلات البلاغية باعتبارها عيوباً لفظية أو معنوية تحد من فصاحة التعبير و طلاقة اللسان، ينبغي أن يتجنبها الشاعر أو الخطيب و عن معازلات القوافي باعتبارها أيضاً عيباً فنياً في قوافي الشعر يطلق عليه عطلال القوافي، الذي يعرف اصطلاحاً باسم التضمين، حيث يضمن الشاعر أو يعلق قافية البيت بما بعده على وجه لا يستقبل بالإفادة. إذا كانت المعازلة في الكلام تعني - لغوياً - تعقيده و موالة بعضه فوق بعض، و تكراره و ترجيعه و تتابعه كما تعني - بلاغياً - التداخل و التراكب في التعبير الأدبي على نحو يكاد لا يبين، و يذهب بشرط من فصاحته و يسبب عثراً في جرس الألفاظ و اتساق نغمها و سلامة تركيبها، لفظياً و معنوياً و هو أمر نبه إليه و حذر منه النقاد و البلاغيون العرب منذ أوليات تدوين البيان العربي و التأليف البلاغي على يد الجاحظ (٢٥٥ هـ) في البيان و التبيين عندما حدثنا عن مقتضيات الفصاحة و الإبانة و ضوابطها الصوتية.

## ٢- خلفية البحث:

إنّ البحث عن المفارقة التصويرية في البلدان العربية قليل جداً و قلماً نجد مقالاً تكلف البحث عنها، و منها: «حركية الصورة الفنية في شعر المتنبي (الصورة السمعية أنموذجاً)» من سيّد مهدي مسبوق، في مجلة لسان مبین، الصيف ١٣٩٠، العدد ٤. و «الموازنة بين المتنبي والجواهري في الكرامة الإنسانية»، من سودابه مظفری، في مجلة الأدب العربي بجامعة طهران، العدد ٤، ١٣٩١. و يكتب مقالات و كتب كثيرة حول المتنبي و ميزات الأدبية؛ مع هذا لم يبحث عن ظاهرة المعازلة اللفظية في الشعر و خاصة الشعر أبو

1- Tongue Twister

الطيب المتنبي في البلدان العربية و البلد ايران و لأول مرة ابن الأثير يكتب من هذا الموضوع النقدي في علم البلاغة و نحن قمنا بإيراد هذا البحث، و تحليل حوله في أشعار المتنبي.

### ٣- نبذة عن حياة المتنبي و ميزاته الأدبية

ولد أبو الطيب أحمد بن الحسين سنة ٣٠٣ هـ، ق في حي بني كندة و لذلك يقال به الكندي و الكوفي أيضاً. و لا نعلم من نسبه شيئاً آخر إلا أنه كان يفتخر فيما بعد و بشرف قومه و شجاعتهم و بأسهم و يقوم جدته لأمه خاصة. إن المتنبي بعيد الطموح شديد العصبية معتداً بنفسه يتعاضم على الناس. و إمتاز المتنبي بالإيثار من المعاني بضرب الأمثال و المبالغة في كل شيء و كان أسلوبه فخماً متيناً جداً و غنياً بالتشابيه البارعة و الإستعارات الأنيقة و بعض الصناعة اللفظية و لم يُعر أسلوب المتنبي إلا للفخر و المديح و كان الفخر و المديح يغلبان على كل فن آخر من فنون المتنبي. أما الحكمة فنشرها المتنبي في جميع قصائدها و له شيء من الوصف و من الشعر الوجداني الخالص. (فروخ، ١٩٨١م: ٤٦٤) المتنبي من أعجب الشخصيات التي عرفها تاريخ الأدب العربي، لأنها شخصية كثيرة الحسنات و كثيرة السيئات، كثيرة حسنات العبقرية و الشمم، و كثيرة السيئات لأخلاق المستعصية القاسية التي لا ترى غير طريق الكبرياء منطلقاً للأمال و الأعمال و هي في عنفوانها الجارف و عنجهيتها الصارخة بغیضة بقدر ما هي محببة؛ و هي في حياتها و مماتها حديث الدنيا و شغل الناس (الفاخوري، ١٩٨٦م: ٧٨٦). شعر المتنبي كان صورة صادقة لعصره، و حياته، فهو يتحدث عما كان في عصره من ثورات، و اضطرابات، و يدل ذلك على ما كان به من مذاهب، و آراء، و نضج العلم و الفلسفة. كما يمثل شعره حياته المضطربة: فذكر فيه طموحه و علمه، و عقله و شجاعته، و سخطه و رضاه، و حرصه على المال، كما تجلت القوة في معانيه، و أخيلته، و ألفاظه، و عباراته. و قد تميز خياله بالقوة و الخصابة فكانت ألفاظه جزلة، و عباراته رصينة، تلائم قوة روحه، و قوة معانيه، و خصب أخيلته، و هو ينطلق في عباراته انطلاقاً و لا يعنى فيها كثيراً بالمحسنات و الصناعة. و يقول الشاعر العراقي فالح الحجية في كتابه في الادب و الفن ان المتنبي يعتبر و بحق شاعر العرب الأكبر عبر العصور

### ٤- توظيف المعازلة

و بين أبو هلال العسكري السبيل الأمثل لصناعة الكلام الجيد و يقول: «إذا أردت أن تصنع كلاماً، فأخطر معانيه ببالك، و تنوق له كرائم اللفظ، و اجعلها على ذكر منك، ليقترب عليك تناولها، و لا يتعبك تطلبها، و اعمله ما دمت في شباب نشاطك، فإذا غشيك الفتور، و تخونك الملل، فأمسك، فإن الكثير مع الملل قليل، و النفيس مع الضجر خسيس، و الخواطر كالينابيع، يسقي منها شيء بعد شيء، فتجد حاجتك من الري، و تنال أربك من المنفعة؛ فإذا أكثرت عليها، نصب ماؤها، و قلّ عنك غناؤها» (العسكري، ١٩٨١م: ١٥١). المعازلة تنقسم إلى قسمين لفظية و معنوية. المعازلة اللفظية: «و هي المخصوصة بالذكر ها هنا في باب صناعة الألفاظ و حقيقتها مأخوذة من قولهم تعازلت الجرادتان، إذا ركبت إحداهما الأخرى، فسمي الكلام المتراب في ألفاظه أو في معانيه المعازلة مأخوذة من ذلك و هو اسم لائق بمسماه. (ابن أنير، ١٩٧٢م: ٣٠٥) و لعل ابن سنان من أفضل البلاغيين العرب - بعد الجاحظ - و أكثرهم عناية بخصائص الفصاحة في كتابه العظيم «سر الفصاحة» و قد حذا حذو الجاحظ في تقسيم الفصاحة - باعتبارها نعتاً للألفاظ - إلى قسمين، الأول منهما يوجد في اللفظة الواحدة على انفرادها من غير أن ينضم إليها شيء من الألفاظ أو تؤلف معه، و الثاني يوجد في الألفاظ المنظومة، بعضها مع بعض. و يحدد تبعاً لذلك شروطاً بعينها متى تكاملت فلا مزيد على فصاحة تلك الألفاظ، و بوجود أضدادها تستحق الذم و الأطراح. (الخنفاجي، ١٩٨٢م: ١٥٧)

فإذا ما فرغ من شروط اللفظة المفردة، انتقل إلى شروط الفصاحة في الكلام المنظوم و ذكر من بينها، وضع الألفاظ موضعها اللائق بها، لئلا يكون الكلام شديد المداخلة، يركب بعضه بعضاً، و هذا حد المعازلة. لأنّ المعازلة كما يشرح مدلولها اللغوي و الاصطلاحي، و هو يذهب في ذلك مذهب الجاحظ - لا قدامه - هي هذا التداخل الشديد بين الألفاظ المركبة، فتلك هي حقيقة المعازلة، لا تلك التي ذهب إليها قدامة باعتبارها عنده هي فأحسن الاستعارة. (جعفر، ١٩٨٠م: ١٧٦) و يذهب ابن الأثير مذهب ابن سنان في فصاحة الألفاظ، مميّزاً في وضوح بين ضربين من المعازلات التي تعترى ألفاظ الكلام المنشور أو المنظوم، هما: المعازلة اللفظية و المعازلة المعنوية. يشترط ابن سنان لحسن التأليف شروطاً متعددة و منها:

ألا يكون في الكلام تقسيم و تأخير، ألا يكون مقلوباً، ألا تقع الكلمة حشواً، و ألا يكون شديد المداخلة و هذه هي المعاطلة. و معيار هذا كله الألفة و الوضوح (الخفاجي، ١٩٨٢م، ١٠١)

### ٥- المعاطلة اللفظية في شعر المتنبي

و يستخدم متنبّي المعاطلة اللفظية في أنحاء من أشعاره كثيراً. و يقول ابن الأثير إذا حققت القول في بيان المعاطلة و الكشف عن حقيقتها فإني أتبع ذلك بتقسيم القسم اللفظي منها الذي أنا بصدد ذكره هاهنا فأقول: اقسام المعاطلة اللفظية إني تأملت بالاستقراء من الأشعار قديمها و محدثها، و من النظر في حقيقتها نفسها، فوجدتها تنقسم إلى خمسة أقسام:

### ٥-١- أدوات الكلام

الأول منها يختص بأدوات الكلام نحو «من و إلى و عن و على»، و أشباهها، فإن منها ما يسهل النطق به إذا ورد مع أخواته و منها ما لا يسهل، بل يرد ثقيلاً على اللسان، و لكلّ موضع يخصه من السبك. وورد قول أبي الطيب المتنبي في القصيدة «عَوَاذُلْ ذَاتِ الْخَالِ فِي حَوَاسِدْ»:

وَحِيدٌ مِنَ الْخِلَانِ فِي كُلِّ بَلَدَةٍ	إِذَا عَظِمَ الْمَطْلُوبُ قَلَّ الْمُسَاعَدُ
و تَسْعِدُنِي فِي عَمْرَةٍ بَعْدَ عَمْرَةٍ	سَبُوحٌ لَهَا مِنْهَا عَلَيْهَا شَوَاهِدُ
تَتْنَى عَلَى قَدْرِ الطَّعَانِ كَأَنَّهَا	مَفَاصِلُهَا تَحْتَ الرِّمَاحِ مَرَوَاذُ

(المتنبي، ١٩٩٧م: ٨٤)

فقوله «لها منها عليها» من الكلام المتعاضل الذي يثقل النطق به. و على أنه قد وردت هذه الكلمات و هم «لها» و «منها» و «عليها» في موضع آخر، فلم يثقل و لكن في هذه القصيدة إتيان هذه الحروف الثلاثة متعاقبة و هذا الأمر يثقل الكلام حتى يصبح أداء الكلام من الثقيل الثقيل.

وكذلك يأتي المتنبي قوله في مكان آخر من القصيدة «طِوَالُ قَنَا تَطَالَعْنَا قِصَارُ»:

تَبَيْتُ وَفُودُهُمْ تَسْرِي إِلَيْهِ      وَ جَدْوَاهُ الَّتِي سَأَلُوهُ اغْتِفَارُ  
فَخَلَقَهُمْ بَرْدَ الْبَيْضِ عَنْهُمْ      وَ هَامُهُمْ لَهُ مَعَهُمْ مُعَارُ  
هُمْ مِمَّنْ أَدَمَّ هُمْ عَلَيْهِ      كَرِيمُ الْعَرِيقِ وَالْحَسْبُ النُّصَارُ

(المتنبي، ١٩٩٧م: ١٥٠)

وقوله «و هامهم له معهم» مما يتقل النطق به، و يتعثر اللسان فيه، لكنه أقرب حالاً من الأول. كما يلاحظ من عيوب الشعر و هي المعازلة، و يقول المتنبي في القصيدة «ما لنا كلنا جو يا رسول»:

صَحَبْتَنِي عَلَى الْفَلَاةِ فَتَاءُ      عَادَةُ اللَّوْنِ عِنْدَهَا التَّبْدِيلُ  
سَتَرْتَكِ الْحِجَالَ عَنْهَا وَلَكِنْ      بَكَ مِنْهَا مِنَ اللَّمَى تَقْبِيلُ  
مِثْلَهَا أَنْتِ لَوْحَتِي وَ أَسَقَمْتِ      وَ زَادَتْ أَبْهَاكُمَا الْعُطْبُولُ

(المتنبي، ١٩٩٧م: ٢٧٨)

كما نرى في الأبيات المذكورة الشاعر يبدأ كلامه بالأبيات الجميلة ولكن المخاطب يلقي بثلاثة حروف الجر الذي يؤتى بعضهم ببعض، فقوله «بك منها من اللمى» من الثقل الثقيل. ربما يجيء مثلاً «من عن طريق اليمين» في موضع آخر و لا يعدّ من الثقل الكلام أما هناك ورد المتنبي ثلاثة الحروف و في رأي قدماء من ابن الأثير و ابن سنان يعتبر من عيوب الكلام الذي يضرب بفصاحة الكلام و يقلّ من جمالة و رشاقة الجملة. يوصى ابن سنان الكاتب و الشاعر معاً، بترك التكلف و الإسترسال مع الطبع في الإبداع، ملحاً على الصورة اللفظية للصناعة الكلامية. و إذا كان تكرار الحروف المتجاورة قبيحاً عنده، فإن تكرار الكلمة بعينها أقبح و أشنع، إلا ما كان التكرار فيه لغرض. و حدّ ذلك عنده، أن يكون المعنى مبنياً عليه و مقصوراً على إعادة اللفظ بعينه (الخفاجي، ١٩٨٢م: ١٠٢-١٠٣).

## ٥-٢- تكرير الحروف

القسم الثاني من المعاطلة اللفظية، تختص بتكرير الحروف، و ليس ذلك مما يتعلق بتكرير الألفاظ، و لا بتكرير المعاني، مما يأتي ذكره في باب التكرير في المقالة الثانية، و إنما هو تكرير حرف واحد أو حرفين في كل لفظة من ألفاظ الكلام المنثور أو المنظوم، فيثقل حينئذ النطق به. و هذا النوع من المعاطلة يشير إلى قرب مخارج الكلمات الذي يلقي بإيراد، مما جاء منه قول أبي الطيب المتنبي في قصيدته «ففا تريناً ودقي فهاتا المَخاييل»:

وَ مَنْ جَاهِلٌ بِي وَ هُوَ يَجْهَلُ جَهْلُهُ	وَ يَجْهَلُ عِلْمِي أَنَّهُ بِي جَاهِلٌ
وَ يَجْهَلُ أَيَّ مَالِكِ الْأَرْضِ مُعْسِرٌ	وَ أَنِّي عَلَى ظَهْرِ السَّمَاكِينِ رَاجِلٌ
فَقَلِقْتُ بِأَلْهَمِ الَّذِي قَلِقَ الْحَشَا	قَلِيقٌ عَيْسٍ كُلُّهُنَّ قَلِيقٌ
عَثَاثُهُ عَيْشِي أَنْ تَعَثَّ كِرَامِي	وَ لَيْسَ بَعَثٌ أَنْ تَعَثَّ الْمَاكِلُ

(المتنبي، ١٩٩٧م: ٢٨٤ و ٢٨٥)

عندما يقرأ المخاطب أبيات مذكورة يصعب له قراءة الألفاظ لأن بعض حروفه مكرراً و يثقل أداءها، مثل «جيم» و «هاء» و «لام» في البيت الأول، ثم يستمر المتنبي هذا الثقل تلوه و يستخدم من القافات و اللامات المتعددة الذي تثقل الكلام أشد ثقلاً و كذلك نشاهد في البيت الثالث من «عين» و «ثاء»، كل هذه الألفاظ الثقيلة تعتبر من عيوب الكلام و نسماها من أنواع المعاطلة اللفظية و هي تبتعد الشعر من جمال و حسنه.

التأتأة الموزونة؛ مشكلة في النطق بتكرار الصوت أو المقطع أو الكلمة، و لسنا هنا طبيياً نفسياً لنحدّثكم عن العلاج و الأسباب، و إنما نحن هنا لنحدّثكم عن تأتأة المتنبي الموزونة؛ تلك التأتأة التي أحرز فيها

المتنبي قصبة السبق و طبق المفصل، و بحق يعدّ أبو الطيب رائد مدرسة التأتأة في الشعر العربي. نرى نموذجاً أخرى من تكرير الحروف ذات الثقل في تعبير أبي الطيب المتنبي:

و لَسْتَ بدونِ يُرْتَجَى العَيْثُ دونَهُ  
و لا مُنتَهَى الجودِ الذي خَلَقَهُ خَلْفُ  
و لا واحداً في ذا الوَرَى من جماعَةٍ  
و لا الضَّعْفَ حتى يَتَبَعَ الضَّعْفَ ضِعْفُهُ  
و لا مُنتَهَى الجودِ الذي خَلَقَهُ خَلْفُ  
و لا البَعْضَ من كلِّ ولكِنَّ الضَّعْفُ  
و لا ضِعْفَ ضِعْفِ الضَّعْفِ بل مثله أَلْفُ

(المتنبي، ١٩٩٧م: ٢٠٤)

هذه الفاءات و الضاءات كماها في تتابعها سلسلة و يؤدي البيت إلى ثقل في أداء الألفاظ، و هذا من التعاضل الكلام و لم يخفى للمخاطب ثقل هذه الألفاظ. و على حدّ رأي ابن سنان فمن أقبح ما يكون من التكرار و أشنع و إذا كان يقبح تكرار الحروف المتقاربة المخارج فتكرار الكلمة بعينها أقبح و أشنع.

### ٥-٣- أن ترد ألفاظ على صيغة الفعل

القسم الثالث من المعازلة أن ترد ألفاظ على صيغة الفعل يتبع بعضها بعضاً، فمنها ما يختلف بين ماض و مستقبل، و منها ما لا يختلف. و أمّا ما يرد على نهج واحد من الصيغة الفعلية فكقول أبي الطيب المتنبي القصيدة «أجاب دَمعى و ما الداعى سَوَى طَلَلٍ»:

ما كانَ نومي إلا فوقَ معرفتي  
بأنَّ رأيكَ لا يُؤتى مِنَ الزَّلَلِ  
أقل أنلِ أقطعَ احمِلَ علَّ سلَّ أعد  
زد هسَّ بشَّ تفصَّلَ أدنِ سرَّ صِلِ  
لعلَّ عتَبَكَ محمُودٌ عواقِبُهُ  
فربَّما صَحَّتِ الأجسامُ بالعللِ

(المتنبي، ١٩٩٧م: ٢٥٩)

فهذه الألفاظ جاءت على صيغة واحدة، و هي صيغة الأمر، كأنه قال: اعمل اعمل، هكذا إلى آخر البيت وهذا تكرير للصيغة و إن لم يكن تكريراً للحروف، إلا أنه أخوه و لا أقول ابن عمه، وهذه الألفاظ متراكبة متداخلة و لو عطفها بالواو كانت أقرب حالاً. في البيت الثاني كما نرى أنه يأتي أربعة عشر فعل أمر حتّى يثقل أداء البيت للقارئ و يبعد الكلام من فصاحة و بلاغته.

ثمّ يواصل المتنبي كلامه في إتيان هذا النوع من التعاضل و يقول:

لا يَسْتَحِي أَحَدٌ يُقَالُ لَهُ	نَضَلُّوكَ أَلْ بُؤْيِهِ أَوْ فَضَّلُوا
قَدَرُوا عَفْواً وَ عَدُوا وَفُوا سُلُّوا	أَعْنُوا عَلُّوا أَعْلُوا وَلُوا عَدَلُوا
فَوْقَ السَّمَاءِ وَ فَوْقَ مَا طَلَبُوا	فَإِذَا أَرَادُوا غَايَةَ نَزَلُوا

(المتنبي، ١٩٩٧م: ٣٢٨)

عندما يجيء في قصيدة واحدة أفعال قليلة تعطي للجملة فصاحة و إيقاع خاصّة، كأنّ نبراته تصل إلى سمع القارئ متعاقبة و يشعر جمالية متميّزة و لكن هذه القصيدة تفتقد تلك الفصاحة و الموسيقى، و قوله في البيت الثاني من عشرة أفعال من الثقل الألفاظ. كما يشير أبو الطيب المتنبي إلى دعائه في شخص الذي مطلعته من هذا النوع المعاضلة:

عِشْ اِبْقِ اسْمُ سُدِّ جُدُّ قُدُّ مَرِّ اِنَّهُ كَسْرُ فُهُ تُسَلِّ	غِظِ اِرْمِ صِبِّ اِحْمِ اغْزُ اسْبِ رُجِّ رَعِ دِلِّ اِنَّ نَلِّ
وَ هَذَا دُعَاءٌ لَوْ سَكَّتْ كُفَيْتُهُ	لَأَنِّي سَأَلْتُ اللهَ فَيْكَ وَ قَدْ فَعَلِّ

(المتنبي، ١٩٩٧م: ٢٥٩)

كما نلاحظ في فوق يأتي أبو الطيب المتنبي عدّة من الأفعال الأمر الذي يؤتى وراء كلمة أخرى، و إتيان ثاني و عشرين فعل أمر يخوض البيت في ورطة ثقل الكلام الذي يعدّ من عيوب البيت، و من هذا المنطلق

إذا يريد المخاطب قراءة القصيدة يسيئ لسمعه لأنّ اللسان يتحمّل صعوبة لأداء أكثر من عشرون فعل أمر متعاقباً، و هذا تكرر صيغة الفعل يوجّه القصيدة إلى معاملة الكلام.

#### ٥-٤- ما تضمن مضافات كثيرة

القسم الرابع من المعازلة و هو الذي يتضمن مضافات كثيرة كقولهم: سرج فرس غلام زيد، و إن زيد على ذلك قيل: لبد سرج فرس غلام زيد، و هكذا أشد قبحاً و أثقل على اللسان، يعبر المتنبّي عن هذه الظاهرة في القصيدة «أجاب دمعى و ما الداعى سوى طلل»:

وَ مَا ثَنَاكَ كَلَامُ النَّاسِ عَن كَرَمٍ      وَ مَنْ يَسُدُّ طَرِيقَ الْعَارِضِ الْمَطِيلِ  
أَنْتَ الْجَوَادُ بِلَا مَنٍّْ وَ لَا كَدْرٍ      وَ لَا مِطَالٍ وَ لَا وَعْدٍ وَ لَا مَدْلٍ  
أَنْتَ الشُّجَاعُ إِذَا مَا لَمْ يَطَأَ فَرَسٌ      غَيْرَ السَّنَوْرِ وَ الْأَشْلَاءِ وَ الثُّلِي

(المتنبّي، ١٩٩٧م: ٢٥٩)

كما نلاحظ في الأبيات المذكورة يبدأ المتنبّي ثناء ممدوحه و يصل في هذا السبيل إلى نهاية المدح و الثناء و هو عدم المنّ و الوعد و الكدر، و كلّ هذه الأمور من الخلق الحسنة للمدوح، أمّا من جهة بلاغة الكلام و فصاحتها يعدّ من عيوب و سقم الكلام لأنّ هذه الجملات المتسلسلة الذي تأتي وراء بعضهم يقلل من رشاقة الكلام مثل «منّ و كدر و مطال و وعد و مدل»، ربّ بعض الناقدین ينظرون إلى هذا النوع من المعازلة من حسن الكلام لأنّ كلمة ذات ايقاع واحد، و ذلك في رأي ابن أثير و ابن سنان من ثقیل الألفاظ لتتابع إضافات الكثيرة المتعاقبة.

#### ٥-٥- ما تضمن صفات متعددة

أن ترد صفات متعددة على نحو واحد، و لكي يكون المعنى شريفاً فصيحاً بليغاً، ينبغي أن يتحلّى بصفة الوضوح، سواء أكان هذا الكلام نظماً أم نثراً. كان ابن سنان يرفض الغموض في الكلام و يعتقد بأن فرط الإيجاز أو إغلاق النظم يهدى أبيات المعاني للمتنبى إلى التعاقل (الخفاجي، ١٩٨٢م: ٢٥٩). و على هذا ورد قول أبي الطيب المتنبى في قصيدة «أظبية الوحش لولا ظبية الأنس»:

من كلّ أبيض وضّاح عمامته	كأتما اشتملت نوراً على قسب
دانٍ بعيدٍ مبغضٍ بهجٍ	أغر حلّو ممرٍ لينٍ شرس
ندٍ أبيٍ غيرٍ أخي ثقبه	جعلٍ سريٍ ندبٍ رضى نـدس
لو كان فيض يديه ماء غادية	عزّ القطا في الفيافي موضع اليبس

(المتنبى، ١٩٩٧م، ص١٧٦)

و هذا كله من سلسلة بلا شك، و قليلاً ما يوجد في أشعار الشعراء، و تلك معازلة معنوية، و إن تغاضينا عن تلك المعازلة فالبيت الأول لا يسلم أيضاً و لا على مذهب المتنبى نفسه، فالمتنبى بنى بيته على ذكر الصفة و نقيضها، فقال: (دان/بعيد) (محب/مبغض) (حلّو/ممر) (لين/شرس)، فلم يلتزم ما اشترطه على نفسه فخرم ما أسس له في صدر البيت و مكّنه في عجزه؛ فحشر صفتين في حشو البيت دون نقيض (بهج/أغر)، فشردا عن سره؛ فأورثا عوارا لدى القارئ المتأمل و المنشد المترنم.

و هذه معازلة لفظية و هي توجد في شعر أبي الطيب كثيراً. و لا يخفى ما في هذا و ذاك من ثقل يحجّه الذوق رغم أنّ المتنبى كان مغرماً بهذا الضرب من الصفات. كما يقول في قصيدة «سقاني الخمر قولك لي بحقي»:

أرودُهُ مِنْهُ بِكَالشُّوْذَانِقِ	بمُطْلَقِ اليُمْنى طَوِيلِ الفَائِقِ
عَبَلِ الشَّوْى مُقَارِبِ المَرافِقِ	رَحِبِ اللَّبانِ نَائِهِ الطَّرَاقِ

ذي مَنْحَرٍ رَحْبٍ وِإِطْلٍ لِأَحِقِّ شَادِخَةٍ عُرْتُهُ كَالشَّارِقِ

(المتنبي، ١٩٩٧م: ٢٢٢)

كما نلاحظ في القصيدة المذكورة حضور الكلمة الغريبة و الحوشية مثل «الشوذانق» الذي يكره الأذن من سمعه و يخلّ لهيكل القصيدة و يعدّ من عيوب الشعر لدى كثير من علماء البلاغة. و توجد سلسلة من المضافات المتواصلة الذي يعيب على المتنبي كثير من نقاد البلاغة، ورد الشاعر في بيت الثاني صفات متعددة مثل «عبل الشوى، مقارب المرافق، رحب اللبان، و نائه الطرائق». هذا الأمر يتقل للسمع لأنّه يهدى القارئ إلى حالة واحدة في أداء الكلمة و تصبح الجملة مستكراً. و يتعد الفصاحة في البيت الثالثة الذي يقوم المتنبي بإتيان خمس صفات متعاقبة، و إنّ تكرار هذه الصفات يتجمّد جماليّة و حسن إيقاع القصيدة. كما شاهدنا بأنّ المعازلة اللفظية تمجّ في القصيدة المذكورة أقساماً.

#### ٥-٦- حوشية الألفاظ

يتحدّث الجرجاني عن إستحسان اللفظ، و أمّا رجوع الإستحسان إلى اللفظ من غير شركٍ من المعنى فيه، و كونه من أسبابه و دواعيه، فلا يكاد يعدو نمطاً واحداً، و هو أن تكون اللفظة ممّا يتعارفه الناس في إستعمالهم، و يتداولونه في زمانهم، و لا يكون وحشياً غريباً، أو عامياً سخيلاً، سخفه بإزالته عن موضوع اللغة، و إخراجها عمّا فرضته من الحكم و الصفة (الجرجاني، ١٩٨٨م: ٦) و الفصاحة عند ابن الأثير تلخّص في حسن الألفاظ لأنّ الكلام الفصيح هو الظاهر البيّن الذيلا يحتاج في فهم فهم ألفاظه إلى مراجعة القواميس و يرجع سبب ذلك إلى كثرة دوران الكلمات في الاستعمال ثمّ إلى مكانة حسناتها. لا وجه لتمييز الحسن من القبيح إلّا من طريق السمع. تنافر الكلمات هو وصف في الكلمات مجتمعة يوجب ثقلها على اللسان و عسر النطق بها و ذلك إذا نطقت مجتمعة لا فرادى، و تسمى المعازلة اللفظية، و تنافر شديد كقول المتنبي:

و لو كانت دمشق ثنى عناني بُسِيقُ التّرْدِ صِينُ الجفان

يَلْنُجُوجِيٌّ مَا زُفَعَت لَضِيْفٍ      بِسِه النيرانُ نَدْيِي الدَّحانِ

(المتنبي، ١٩٩٧م، ص ٤٢٨)

و قد عرف المراغي كراهة في سماع بقوله: هي أن تمجّ الكلمة الأسماع، و تأنف منها الطباع لوحشيتها و غلظتها، (المراغي، ص ٢٢) كالجرجشي في قول أبي الطيب المتنبي يمدح سيف الدولة:

أ في الرّأي يشبّه أم في السخاء      أم في الشجاعة أم في الأدبِ

مباركُ الاسمُ أغرُّ القلب      كريمُ الجرجشيِّ شريفُ النسبِ

(المتنبي، ١٩٩٧م: ٣٥)

تجد لتأليف الكلمة في السماع حسناً و مزيةً على غيرها، و إن تساويا في التأليف من الحروف المتباعدة. و مثله البارز في القصيدة المذكورة كلمة «كريم الجرجشي» و معناه كريم النفس لكن هذه الكلمة تبتعد عن الفصاحة العربية و تكون مستكرهة و نابية. يرى بعض علماء اللغة أن طول حروف الكلمة أي كثرة حروفها سببٌ في التنافر كقول المتنبي:

إنَّ الكرامَ بلا كرامٍ منهمُ      مثلُ القلوبِ بلا سُويداواتِها

(المتنبي، ١٩٩٧م: ٧٣)

البيت من قصيدة يمدح فيها أبا ايوب أحمد بن عمران، و يقول إنَّ الكرام من الخيل إذا لم يكن عليها فرسان من هؤلاء الممدوحين، كالقلب دون سويداء. من شروط الفصاحة تكون الكلمة معتدلة غير كثيرة الحروف، فإنَّها متى زادت على الصّور المعتادة المعروفة قبحت و خرجت عن دائرة الفصاحة و ذلك مثل «سويداواتها»، هذه الكلمة مع اشتغالها على عيوب أخرى غير مرضية. إنَّ فصاحة الكلمة تكون بسلامتها من تنافر الحروف و من الغرابة و الإبتدال و الضعف فإذا لصق بالكلمة عيب و جب نبذها و إطراحها، و

لا يظهر معناها، فيحتاج في معرفته إلى أن ينظر عنها في الكتاب المبسوط (القزويني، ٢٠٠٣م: ١٤). و يوظّف أبو الطيب المتنبي من هذه الألفاظ الحوشية و الغريبة في قصائده مراراً كقوله:

و حكى في اللحوم فعلك في الوفير  
فأودى بالعنتريس الكِنَازِ  
كُلِّمَما جادَت الظُّنونِ بوعدي  
عَنكَ جادَت يداكَ بالإِنجازِ  
وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَجُوزُ عَلَيْهِ  
شُعْراءُ كأنَّها الخازِيازِ

(المتنبي، ١٩٩٧م: ١٧٤)

يأتي الشاعر كلمة «العنتريس» و «الخازياز» في قصيدته يعدّ من كلمات مهجورة يستفيد لفهم معناه من المعاجم القديم، لما يسمع القارئ هذا الألفاظ تأنفها الطباع و تمّجها الأسماع و تنبو عنه ، كما ينبو عن سماع الأصوات المنكرة.

#### ٥-٧- المنافرة بين الألفاظ في السبك

و هذا النوع لم يحقق أحد من علماء البيان القول فيه، و غاية ما يقال: إنّه ينبغي ألا تكون الألفاظ نافرة عن مواضعها، ثم يكتفي بما القول، من غير بيان و لا تفصيل، حتّى إنّه قد خلط هذا النوع بالمعازلة، و كلّ منهما نوع مفرد برأسه له حقيقة تخصه، إلّا أنّهما قد اشتبهتا على علماء البيان فكيف على جاهل لا يعلم. و قد بينت هذا النوع و فصلته عن المعازلة، و ضربت له أمثلة يستدل بها على أحوالها و ما يجري مجراها. و جملة الأمر أنّ مدار سبك الألفاظ على النوع و الذي قبله دون غيرها من تلك الأنواع المذكورة، لأنّ هذين النوعين أصلاً سبك الألفاظ، و ما عداهما فرع عليهما، و إذا لم يكن النائر أو الناظم عارفاً بهما فإنّ مقاتله تبدو كثيراً. و حقيقة هذا النوع الذي هو المنافرة: أن يذكر لفظ أو ألفاظ يكون غيرها مما هو في معناها أولى بالذكر. و على هذا فإن الفرق بينه و بين المعازلة أنّ المعازلة هي التراكب و التداخل إما في الألفاظ أو في المعاني، على ما أشرت إليه، و هذا النوع لا تراكب فيه، و إنّما هو إيراد ألفاظ غير

لائقة بموضعها الذي ترد فيه. و هو ينقسم قسمين: أحدهما يوجد في اللفظة الواحدة، و الآخر: في الألفاظ المتعددة (إبن الأثير، ٩٧٣م: ٣١٤-٣١٥).

فأمّا الذي يوجد في اللفظة الواحدة فإنه إذا أورد في الكلام أمكن تبديله بغيره ممّا هو في معناه سواء كان ذلك نثراً أو نظماً. و أمّا الذي يوجد في الألفاظ المتعددة فإنه لا يمكن تبديله بغيره من الشعر، بل يمكن ذلك في النثر خاصة لأنّه يعسر في الشعر من أجل الوزن. فممّا جاء من القسم الأول قول أبي الطيب المتنبي «نرى عظما بالبين و الصدّ أعظم»:

فَلا يَبْرُمُ الأَمْرُ الذي هُوَ حَالِلٌ      وَ لا يَحْلُلُ الأَمْرُ الذي هُوَ يَبْرُمُ  
وَ لا يَرْمَحُ الأَذْيَالَ مِنْ جَبَرِيَّةٍ      وَ لا يَخْدُمُ الدُّنْيَا وَ إِيَّاهُ تَخْدُمُ  
وَ لا يَشْتَهِي بَيْقَى وَ تَفْنَى هِبَاتُهُ      وَ لا تَسْلُمُ الأَعْدَاءُ مِنْهُ وَ يَسْلُمُ

(المتنبي، ١٩٩٧م: ٣٧٤)

فلفظة «حائل» مستقبح و نافرة عن موضعها و إن جاز لضرورة الوزن، و كانت مندوحة عنها، لأنه لو استعمل عوضاً عنها لفظة ناقض فقال:

فَلا يَبْرُمُ الأَمْرُ الذي هُوَ ناقِضٌ      وَ لا يَنْقِضُ الأَمْرُ الذي هُوَ يَبْرُمُ

و له كثير من أمثال هذه المتحوزات المكروهة و لا محل سردها. و لا يندر أن يضحي بصحة التعبير اللغوي انقياداً لضرورة الوزن كقوله:

لَوْ كُنْتَ حَشَوَ قَمِيصِي فَوْقَ نُمْرُقِهَا      سَمِعْتَ لِلْجَنِّ فِي غِيْطَانِهَا رَجَلا  
حَتَّى وَصَلْتُ بِنَفْسٍ مَاتَ أَكْثَرُهَا      وَ لَيْتَنِي عَشْتُ مِنْهَا بِالذِّي فَضْلا

(المتنبي، ١٩٩٧م: ٢٨٣)

يقول لو كنت بدلي في قميصي فوق نمرق ناقتي سمعت أصوات الجن من منخفضات هذه المفاوز أي أنها مساكن الجن لبعدها من الإنس والعرب إذا وصفت المكان بالبعد جعلته مساكن الجن كما قال الأخطل، ملاعب جنانٍ كأن تراهما، إذا أطردت فيها الرياح مغربل، وبيت المتنبي من قول ذي الرمة، للجنب بالليل في حافاتها زجل، كما تجاوب يوم الريح عيشوم، مات أكثرها ذهب أكثر لحمها وقوتها لما قاست من هول الطريق وشدته ثم تمنى أنه يعيش بما بقي من نفسه ليقضي حق خدمة الممدوح. و مقتضى المعنى الواضح أن يقول: «و ليتني أعيش». و من هذا القسم وصل همزة القطع، و هو محسوب من جائزات الشعر التي لا تجوز في الكلام المنثور و كذلك قطع همزة الوصل، لكن وصل همزة القطع أقبح، لأنه أثقل على اللسان. و عليه ورد قول أبي الطيب المتنبي:

يَرَاهُ النَّاسُ حَيْثُ رَأَتْهُ كَعَبٌ      بِأَرْضٍ مَا لِنَازِلِهَا اسْتِنَارُ  
توسطه المفاوز كل يوم      طلاب الطالبين لا الانتظار

(المتنبي، ١٩٩٧م: ١٥١)

فقوله «لا الانتظار» كلام نافر عن موضعه. و قد يأتي اللفظ غير فصيح إذا خالف القواعد الصرفية الأخرى غير الادغام، كقول المتنبي في مدح سيف الدولة:

إذا كَانَ بعضُ النَّاسِ سيفاً لدولةٍ      ففي النَّاسِ بوقاتٌ لها و طُبُولُ  
أنا السَّابِقُ الهادي إلى ما أقوله      إذِ القَوْلُ قبلَ القائلينَ مقوْلُ

(المتنبي، ١٩٩٧م: ٢٦٥)

البوق قد جاء في كلام العرب أنشد الأصبغ، زمر النصارى زمرت في البوق، ومنه سميت الداهية باثقةً و يقال أباق عليهم الدهر أي هجم عليهم كما يخرج الصوت من البوق و قد جمع بوق جمعاً مؤنثاً سالماً و الصحيح جمعه على أبواق جمع تكسير. إتيان بالضمير متصلاً بعد إلا كقول المتنبي في بدر بن عمّار:

لم ترَ مَنْ نادمتَ إلاّ كما      لا لسوى وُدّك لي ذاكَا  
وَ لا لحبيبتها ولكِنني      أمسيْتُ أرجوكَ و أخشاكَا

(المتنبي، ١٩٩٧م: ٢٣١)

و ممّا جاء من القسم الثاني - الذي يوجد في الألفاظ المتعددة - قول أبي الطيب أيضاً: سِرْبٌ مَحاسِنُهُ  
حُرْمَتُ ذواتِها

رعدُ الفوارسِ منكِ في أبدانِها      أجرى مِنَ العَسَلانِ في قَنواتِها  
لا خَلقَ أكرمَ منكِ إلاّ عارفٌ      بكِ راءَ نفسِكَ لم يَقُلْ لكِ هاتِها  
عَلِمَتِ الذي حَسَبَ العُشورَ بِأيةِ      ترتيلِكَ السُّوراتِ مِنَ آياتِها

(المتنبي، ١٩٩٧م: ٧٤)

يقول الذي يحسب العشور يعني القرآن والقرآن كله عشور و هي معجزة واحدة و ترتيلك في حسن قراءتك و بيانك معجزة أيضا فمن سمع ترتيلك فلم يعده آيةً فهو غالط بآية لأن ترتيلك في الإعجاز مثلها فوجب الحاقه بها حتى يقال القرآن معجزة و ترتيلك معجزة فهما معجزتان. لا أحد اسمح منك إلا إنسان رآك فعرفك فلم يسألك أن تحب له نفسك وهذا من قول الآخر، و لو لم يكن في كفه غير روحه، لجاد بها فليتنق الله سائله، فإنّ عجز هذا البيت نافراً عن مواضعه، و رواية الديوان « لا خلق أسمع»، «راء» مقلوب «راى»

## ٧- نتائج البحث

مما تقدّم نستخلص:

يتناول هذا البحث ظاهرة المعازلة اللفظية في شعر أبي الطيّب المتنبي حيث يتجسّد هذه ظاهرة من خلال أساليب البلاغة التي تجعل العمل الأدبي يتميّز من غيره من أنماط الكلام. وقد تناول البحث هذه الظاهرة من خلال آراء ناقد و بلاغي كبير هو ابن الأثير الذي تعمق فيها و قلب الوجوه و ركز على المعازلة اللفظية و يعتقد بأنّها يتّجه الكلام إلى الثقل و صعوبة التعبير حيث يبتعد من فصاحة الكلام و جمالياتها. المتنبي من أكابر الأدب في اللغة العربية أمّا فنلاحظ بظهور هذا التعاضل في بعض أبياته، و يتطرق ابن الأثير إلى هذا الموضوع من منظر نقدي و يعدّها من عيوب الكلام و يقسّمها إلى ثمانية أقسام. هذا و فإنّ بعض قصائد المتنبي تتورّط في هذا العيب الشعري، و لو كان قصده إزدياد الجماليّة ولكن يقلّل من فصاحة الأبيات و إيقاع القصائد

## المنابع و المآخذ

- القرآن الكريم.
- فروخ، عمر (١٩٨١م). «تاريخ الأدب العربي الأعصر العباسية»، بيروت: دار العلم للملايين، الطبعة الأولى.
- المتنبي، أبو الطيب (١٩٩٧م). «ديوان المتنبي»، بيروت: دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى.
- الحوفي، احمد و بدوي ، طبانة (١٩٧٣م). «المثل السائر في أدب الكاتب و الشاعر»، القاهرة: دار نهضة مصر للطبع و النشر ، ط ٢.
- المراغي، أحمد مصطفى، (لا تا) «علوم البلاغة»، بيروت: دار الكتب العلمية.

- الفاخوري، حنا (١٩٨٦م). «الجامع في تاريخ الأدب العربي القديم»، بيروت: دار الجيل، الطبعة الأولى.
- الخفاجي، ابن سنان (١٩٨٢م). «سرّ الفصاحة»، مصر: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى.
- القزويني، الخطيب (٢٠٠٣م). «الإيضاح في علوم البلاغة»، بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى.
- أبو هلال، العسكري (١٩٨١م). «كتاب الصناعتين»، تحقيق د. مفيد قميحة، بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى.
- جعفر، قدامة، (لاتا). «نقد الشعر»، تحقيق كمال مصطفى، القاهرة: مكتبة الخانجي، الطبعة الأولى.
- الجرجاني، عبد القاهر (١٩٨٨م). «أسرار البلاغة»، تعليق: محمود محمد شاكر، القاهرة: مطبعة المدني، الطبعة الأولى.